الثورة العربية في الحرب الكبرى

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

اصطلاح

الجغرافيون على تسمية شبه الجزيرة ، الواقعة في طرف آسية الصغرى الجنوبي ، بلاد العرب ، او عرابية(*Arabia*)، كما قالوا فرنسة وايطالية واسبانية ، فساووا ان القطر الواقع بين الاوقيانوس الهندي والبحر الاحمر هو موطن امة واحدة لغةً واصلاً وادارةً وشعباً ومصالح اقتصادية وادبيةً ، شأنَ البلاد ذات الوحدة المؤلفة من اتحاد العناصر ، واتفاق الآراء والقلوب . وقد يتجسم ذلك الوهم في عقل العوامّ ، اذا ما سمعوا اقوال الدعاة الى الجامعة العربية الكبرى ، المناشدين كل من ينطق بالضاد في مشارق الارض ومغاربها ، الى لمّ شتاتهم تحت لواء القومية العربية ؛ والقومية العربية في اصلها انما هي نواة فارغة ، لان قلبها هو الجزيرة ، والجزيرة ليست دار امة واحدة . بل هناك قبائل لا يحصى عددها ، منقسمة بعضها على بعض ، فضلاً عما يقسم بينها من مواعر المسالك ومتسعات الفلوات في هضاب وسهول وبطون وحزون ، لا يعيش فيها ابن آدم في الغالب ، الّا بالغزو ؛ وليس العيش والارتزاق بالغزو الا حياة فتن مقيمة وحروب مستديمة تلك الحالة معهودة منذ القدم في تاريخ الجزيرة ، وهي لا تزال في يومنا مخيّمة على بلاد العرب.

كيف تألفت فلوبريم ؟

لمّا حلّ لورنس ، الكولونيل الانكليزي ، مرفأ جدة ، في تشرين الاول

سنة ١٩١٦ ، موفداً من قبل الحكومة البريطانية ليسعى في الوقوف على افكار الشريف الحسين بن علي ، وفي البحث على وسائل ضمّ قبائل الحجاز الى حزب المتحالفين ، فيسلح العرب ويطلقهم على الاتراك ؛ لم تكن حالة القبائل القاطنة في الحجاز وعلى الحدود السورية غير التي عهدناها في التاريخ ، وغير التي وصفها الشريف حسين اذ قال : « وماذا في شبه الجزيرة ؟ غير الامراء الاعداء والقبائل المتمرّدة والصحارى والقفار ؟ »[1] فكان من حيل لورنس ودهائه وصفاته الفريدة أنه فهم نفسية العرب ، وحلّ منها محلًا رفيعاً سلطه عليها ، فارتبط بصداقة الامير فيصل وزوّده بالذخيرة والمال ، والف بواسطته قلوب البدو ، وجمعها وشد عزائمها ، وساقها من مرحلة الى مرحلة ، ومن مناوشة الى مناوشة ، الى ان دوّخ الاتراك وسلبهم راحتهم على جناحهم الشرقي ، وساعد اللنبي القائد العام على جبهة فلسطين ، في فوزه النهائي الباهر ودخول دمشق ، عاصمة الامويين ، دخول الفاتح الظافر سنة ١٩١٨ .

وما مضت عشر سنوات على تلك الحوادث حتى نشر لورنس وصفها في كتاب عنوانه « الثورة في البادية » (١٩١٦—١٩١٨) . ونُقل ذلك الكتاب من اللغة الانكليزية الى الافرنسية ، وتصرّف به اخيراً السيد شاكر خليل نصار ، فاقتطف زبدته معربةً وعرضها على القرّاء تحت عنوان « لورنس والعرب » ، ودخلت مذكرات لورنس في سلسلة المؤلفات الموضوعة ليُعول عليها في تأليف تاريخ الحرب العام . وهي معدن يحوي شتى التعليمات عن عرب الحجاز ، وبلاد معان والسرحان ، وعن اراضيهم واخلاقهم ، وعن تطورات الوقائع في تلك الناحية المجهولة من نواحي الحرب الكونية .

وللكولونيل لورنس الانكليزي نظرات شخصية وتصميمات غريبة حاول ان يجريها في الامر الواقع ، كانت ترمي الى انشاء الدولة العربية الجامعة . فزرع فكرتها في قلوب اعراب لم تخطر لهم في بال ، وحاول سحابة سنتين ان ينفذ تلك الفكرة في العمل حتى اقترب من النجاح ، ولكنه لم ينجح ،

---

١) راجع ملوك العرب للريحاني ١ : ٦٥ : صادر ببيروت ١٩٢٤—١٩٢٥

وذهبت آماله اضغاث احلام . على ان لمذكراته قيمتها التاريخية والادبية ، وهي مرآة الثورة العربية وترجمانها . وان ترق رواية لورنس القراء الانكليز ، فلا اقلّ من ان تلفت انظارنا ، اذ انها مسرح تختلف عليه صور الصحارى واسرارها وسكانها .

في طلب الزعيم

اول من التقى به لورنس من الامراء العرب كان الامير عبد الله ، ثاني اولاد الشريف حسين . قصد الى جدة ليسلم على لورنس ، فوصل راكباً فرساً بيضاء ، محفوفاً بعبيده . دخل ووجهه يسطع باشعة نور الفخر ا كيف لا ؟ وقد كسر الحامية التركية في مدينة الطائف ، ونال استحسان القوم . فابشرت الوجوه لقدومه واستلفتت منه عطفاً وابتسامة .

اما لورنس فتفرس فيه فلم يجد فيه ضالته المنشودة ، وحول عنه النظر الى رجل غيره ، قدير على ان يكون زعيم الثورة العربية ونبيها . من هو ذلك الرجل ؟ واين هو ؟ العله علي ابن الشريف البكر ؟ كلا ! نعم لقد اكرم علي ضيافة القائد البريطاني عند قدومه اليه في الرابغ ، لكنّ اخلاقه لا تنم عن الصفات الضرورية للامر والحكم والتدبير والمغامرة في سبيل النصر . ترك لورنس الاخوين الاولين ، ومضى قاصداً الى معسكر فيصل ، ابن الشريف الثالث . وكانت الطريق اليه صعبةً مملةً في حمارة القيظ . فقطعها لورنس بلا ملل ولا فتور الى ان بلغ الحمراء بين مكة والمدينة ووصف قدومه على الامير العربي وصفاً دلنا الفه كاتبنا العرب ونحن نعرّبه ليكون القارئ به على بصيرة من اسلوب المؤلف ، ويتعرف منه الى شخصية فيصل :

« فويق بلدة « الوسطى » انشقر الوادي عن عرض زهاء ٤٠٠ متر ، وكشف على قاع صحصح ورمل رسيب . وبرزت الصخور من حمر وسود على اعالي المنحدرات كانها الجدران المخرمة ، ورؤوسها كالسكاكين . وقعت عليها اشعة الشمس وقوعها على الصفحات المعدنية فانعكست وتطايرت شظايا ، فزاد رهيجها بقيسة الرطوبة المنبعثة من الاشجار والعشب . ونظرنا ، واذا رجال

فيصل وخيله في المراعي والعسكر مخيَّم في كل جرف من الصخور المحاذية للطريق ، وفي كل دغل من الادغال . بادروا دليلي بالسلام فعلت الاصوات بالترحاب . وانتبه الدليل وردّ السلام وعجل سيره على امل الوصول سريعاً والانطلاق الى شأنه بعد القيام بمهمته نحوي.

« سرنا والحمراء ، مقام فيصل ، ممتدة على يسارنا ، وبيوتها المئة ، على ما رأيت ، متوارية في البساتين ، متفرقة بين اطلال لا يخيف عاوها على الشريف قدماً . قطعنا ساقية المخاضة في الوادي ، وجانبنا حديقة جنة غناء وارتقينا ذروةً من السذرى ، حتى بلغنا الى باب دار يؤدي الى بيت واطئ مستطيل . فبركت الجمال وكلم الدليل الحرس . وكان واقفاً بالحراسة عبد وبيده سيف فضي القبضة ، فادخلنا . فنظرت فاذا برجل مرتد ثياباً بيضاً ، واقف كالشبح على باب البيت ، بين عاموديه القائمين ، ولم اكن رأيته عمري قط ، ولكن ما وقع نظري عليه الا اشعرت انه هو هو ضالتي المنشودة والزعيم القمين بان يسير بالثورة العربية الى النصر المبين.

« برز فيصل متشحاً بالحرير الابيض الفضفاض ، منتصباً كالعامود : طويل القامة ، مطرقاً الى الارض ، اسود اللحية ، كامد الوجه ، مقنعاً بالجمود . ووجهه مع ذلك يتلوّن بالوان تخفظ وحذر مدهش . وقف ويداه على قبضة خنجره .

« فسلمت عليه.

« فادخلني غرفة الضيوف وتنحى وجلس القرفصاء بالقرب من الباب ، وما ان انست عيناي بعتمة الغرفة الا اكتشفتا في زواياها وجوهاً صامتة وابصاراً شاخصةً تارةً اليَّ ، وطوراً الى فيصل.

« وتأمل الشريف السلاح بين يديه ، ثم كلمني وقال :

« خير ، ان شاء الله .

« فقلت : يوم قائظ.

« قال : وكم من الزمان على الطريق.

« فاخبرته ، فقال ان المدة قصيرة بالنسبة للفصل وحرّه . ثم قال :

« وما رأيك في مقامنا في وادي الصفراء.

« فقلت: لا بأس به ، ولكن شتان بينه وبين الشام!

« وما كان انقضاض الصاعقة في وسط الجماعة ليحدث التأثير الذي احدثته اللفظة في قلوب الحاضرين . وكنت لتحسبهم كانهم قبضوا، وانحبست انفاسهم في سكوت دام دقيقة » . . .

على تلك الصورة مثل لورنس الحوادث في مذكراته.

هذا ، ولو اتيح لزعماء الحملات العربية التي سارت للفتح في مستهل التاريخ الهجري، ان يجلس بينهم كاتب جلوس لورنس في موتمر الحمراء ؛ لعرفنا كيف كانوا يحنون الى ارض الشام ويتوقون اليها . وهي التي وصفها لهم روادهم : ارض الخمر والخير ، والديباج والحرير ؛ فما اطيب ثمارها واعذب مياهها وابلّ هواءها . اولا يجدر بهم ان ينسوا المشاحنات القديمة ويتفقوا عليها مرتعاً ومغنباً . ولكن ما اشبهها عن رمالهم بوناً ، وما ابعدها عن رغائبهم منالاً !

مصدات الثورة العربية

بلغ لورنس محطة الآمال ، ووجد قائد الثورة . ولكن اين رجالها ؟ ومن ينظمهم ويقودهم ، ومن يمدهم بالمال والذخيرة ؟

جمع فيصل جيشاً متفاوت العدد ، بين السبعة والثمانية آلاف ، وهم رجال بدو لا ضابط لهم ، ولا عهد في الفنّ الحربي الحديث . لا سلاح لهم الا ما يتخذه النفر له من بندقية يفتش عنها في بيته فيحملها مدةً ، ثم يعود على آله ؛ فيسلمها غيره ، وعلى تلك الطريقة يتناوبون . وكان المتزوّجون من الجند يعودون الى عيالهم من غير ان يستأذنوا قوادهم.

وربما هجرت عشيرة برمتها معسكر الجيش وارتدت على اعقابها عاكفةً على الراحة ، ولم يكن بين العسكر صلة نظام ولا قيد . وكان بعضهم معادين لبعض مضمرين في قلوبهم الاحقاد والشرور . فيتباعدون عن الملاقاة اتقاء المشاحنات ودفعاً الاذى . ولم يكن في معسكر فيصل من الاسلحة المجهزة

الا البنادق اليابانية الغير المتقنة الصنع ، السريعة العطب والانفجار في ايدي صاحبها ، واربعة مدافع قديمة من طراز كروب ، لا ترمي قنابلها الى ابعد من ثلاثة آلاف متر ، ولا تقوى على مقاومة المدافع التركية الرامية الى ما وراء القمة آلاف متر . وليس للعرب ديوان ذخيرة ، ولا ديوان يعهد اليه بامر التقليات ، بل كان المقاتلون يتدبرون شؤونهم بامر النقل كل واحد بذاته . اما خزينة المال فنحدث عنها ولا حرج . كان فيصل قد وضع صندوقاً ، واقام عليه حرسه الخاص ، وكان الصندوق ثقيلاً مختوماً فيحمل على جمل ويرحل مع قواد الحملة اينما رحلوا ، ويحط تحت خيامهم اينما حطوا ، وكان الاعراب يتوهمونه صندوق الذهب ، ولكن كان ملؤه الحجارة .

تلك الحالة السيئة لم تكن لتستحث زعيم الثورة العربية على مغامرة الحرب لولا ذكاء لورنس ودهاؤه . فانه اخذ على عاتقه امر اصلاح ذات البين بين الامراء ، فاستجلب مئات الالوف من الليرات الانكليزية من القاهرة ، ووزع الاصفر الرنان بين العرب ، واطلق في ميدانهم «فرسان القديس جرجس» فالف القلوب . ولم يتكلم لورنس على تلك العطايا في كتابه الا همساً لكن ذكرها فيه واضح . وتلك المرابح وغيرها من المغانم التي غنمها اصحاب الثورة على الاتراك وبما وصلت اليه ايديهم من سلب ونهب ، هي التي كانت في الغالب تحول دون فك العصبة التي بذل لورنس قصارى جهده في احكام عقدها . فبذل المال وتمهد بالاسلحة والذخيرة والزاد على ان يقدم العرب الرجال ويتألفوا ويسيروا تحت لواء واحد .

امراء العرب ووفودهم

فتح عرب الشريف مدينة الوجه على شاطئ البحر الاحمر بمساعدة لورنس والمراكب الانكليزية . وضرب فيصل سرادقه الفخم الجميل على بعد ميل من البحر ، وخيم العساكر في منخفضات الرمال اتقاء الحر . وقامت الروّاد في الصحراء تدعو العرب الى الاجتماع حول الشريف ، وما عتّم ان تحركت القبائل وسارت اليه الركبان من كل صوب وفج . ذكرهم لورنس : منهم بنو عجيل ،

وبنو عتيبة ، وعرب البلي والجهينة والحويطات والطيسة والرولا . ووصفهم وصف الكاتب النحرير المعي ذكرى الرجال في مخيلة القراء . قال في نوري الشعلان ، امير الرولا :

« قطع نوري شوطاً من عمره ، وحكم في قبيلة عنزة ثلاثين سنة ، ولم ينل نوري سطوته من نسبه ، وان يكن من نبلاء الرولا ، ولم يستهو قلوب رجاله اليه ، وليس هو القائد المتبدع المفدّى . لكنه شديد البأس صعب المراس . بطش باخويه غيلة ، فهابه العرب . وحالف الشرارات وغيرها من القبائل ، فلم تخالف له امراً في متسعات اراضيها . ليس نوري صاحب دهاء وحيل ، شأن غيره من الشيوخ ، بل يطلق كلامه فوراً وينفذه كالسهم الصائب فلا يقف بوجهه معارض ولا مقاوم . »

وكان نوري متصلاً بالاتراك موالياً لهم ، وحالف مع ذلك الشريف فيصل ، ومده بفتات الجمال . وعاهد لورنس الا يتعارض لمرور العرب الثوار في بلاد السرحان ، بين الجوف والازرق ، شرقي البحر الميت . وتوسط بين زعيم الثورة ومستشاره لورنس وعرف اليها عودة ابا طي امير الحويطات ، من ليس له ند ولا نظير في شبه الجزيرة العربية .

عودة ابو طي قائد باسل يساوي وحده كتيبة الفرسان بطشاً وبأساً : طويل القامة ، مربع الكتفين ، منتصب القوام ، سريع الحركة ، نضير الاعضاء لدنها . جاوز الخمسين من عمره ، وجرح ثلاث عشرة مرة ، وقتل من الاعراب سبعين ، ومن الاتراك ما لم يُحص عدده . مقدام على النزو والسلب ، مقحام المخاطر ، خواض المنايا ، داهية زمانه ، ذلق اللسان ، حلو النوادر ، تزوج بثماني وعشرين امرأة . صادق لورنس ودربه على اسلوب العيش ، وعلى القتال في الصحراء .

وهوذا الشريف شاكر ، مشوق عرب العتيبة وحبيبهم لانهم عهدوا فيه صفات الفروسية والبطولة العربية . لا يشق له غبار ، ولا يبارى في دمي الرصاص والشجاعة والغنى والعز . وهو حريص على استهواء قلوب البدو بمظاهره الخشنة وزيه البسيط واخلاقه البدوية . يترك رأسه مرتعاً للحشرات ويضحك قائلاً : « لا يمنع الكلأ عن النعم الا البخيل . »

واقبل الى زعم الثورة غيرهم من الامراء: ابو زحال ابن عم عودة ، وامراء الشرارات ، وضيف الله ابو تيور ابن عم احمد بن غزي ، من رحالة عرب معان ، ونواف بن نوري الشعلان ، وابو تجيجه ، وغيرهم.

وكان قدوم زعماء العرب على فيصل يهيج في قلوب الرجال اجمعين عواطف التحمس والتآلف. فيغتنم الشريف فرصة ليستحلفهم على القرآن « انهم يكونون معه حيثما يكون ، فيصبرون اذا صبر ، ويرحلون اذا رحل ، وينبذون طاعة الاتراك ، ويصادقون العربي اينما وجدوه اكان في بغداد ، او في حلب ، او في الشام ، او في شبه الجزيرة ، وانهم يفضلون استقلال شبه جزيرة العرب على الحياة والاكل والمال ».

وظل فيصل سحابة ستتين امام العرب ورشيدهم وقاضيهم . يدخل الاحزاب عليه ليحكم فيهم ، ويصلح ذات البين فيقوم بهمته خير القيام من وراء جبهة القتال ولم يتعرض للمعارك ولم يقاس الاهوال التي قاساها غيره من الامراء . ولكن مهمته السلمية رفعت مكانته ، فقويت شوكته وعلا نجمه ، وخفق علمه على رؤوس الاعراب المنضمين اليه فاصبحوا امّةً واحدة فتألفت قلوبهم او كادت . وصاروا كالجيش الجرار.

على ان جيش العرب لن يكون كسائر الجيوش المنظمة . فكر لورنس في امرهم ، فاذا هم رجال صحارى لا ينقادون الى نظام ، ولا يقف لهم صف بوجه عدو . فالاولى به الا يسألهم ما لا طاقة لهم باحتماله بل يجاريهم على اميالهم ، ويسير واياهم في حرب الخداع والمواربة . فلم يضيّق عليهم لئلا تُخمد انوارهم ، ولم يحبسهم ضمن حدود منطقة واحدة ، بل تركهم يتطايرون كالشرارات المحرقة او كالذباب اللاذعة ، ينهالون على العدو على غفلة منه ويفتكون فيه فتكاً ثم يغيبون كالبرق . فصاروا للاتراك شغلاً شاغلاً ، وهمًّا يحز عظامهم وعرقل حركاتهم وانهك قواهم على الجبهة الفلسطينية امام القائد اللنبي .

الحملة على العقبة

وتوالت حملات العرب وتجددت مراراً ، ومنها ما كانت حرب خدعة ومنها

حرب سجال ، حيث يكون القرن كفوءا لقرنه . وكان لورنس الدافع اليها حيناً عن اتفاق مع القائد العام ، وحيناً تعلة للعرب لئلا يأسوا البعد عن الاوطان ، ويتحدثوا بهجر الجيش . وقد يطول بنا المقال في سرد قصص تلك الحملات ، فحسبنا ذكر السير على العقبة ، ليقف منه القارئ على بعض المشقات التي تكبدها لورنس في بلوغ مأربه . سافر بصحبة عودة ابي طي ورجاله مسافة ١,٤٠٠ ميلاً . شدوا الرحال ، وساروا ليل نهار في هواء كانه لهيب الجحيم . حالفهم الجوع والعطش ، ودبّت برفقتهم افاعي الصخور ، وعشش البقّ والبراغيث والقمل في ثيابهم لا بيت لهم الّا عند عرب الحويطات ، وتبًا لهم من مضيفين ثقلاء يتهافتون على نزيلهم ، متطفلين مستقصين اخباره ، ساعة يكون بمسيس الحاجة الى الراحة .

اجتاز لورنس ورفاقه المفاوز ، وقاربوا عمان واعلنوا قدومهم باطلاق الرصاص ، ونسفوا ثمانية جسور ، وعطلوا الخط الحديدي على مسافة طويلة . فانتبه الاتراك من غفلتهم وفزعوا ، وفهموا انهم في خدعة عند استصغارهم شأن العرب . فتحفزوا لقتالهم وقطع دابرهم في جملتهم على العقبة . وشد عزائم الاتراك قدوم طابور من الجند القوقازي الى معان . وتأهب لورنس من جهته للاحتكاك بهم ، فوزّع العرب على اطرافهم واطلق سراحهم ، فطاروا كالبزاة الكواسر وانقضوا على الاتراك وافقدوهم رشدهم ، ثم جمع لورنس جموعه وهجموا على الاتراك هجوماً عاماً فكسروهم ، وانخنوا فيهم ، وهزموهم شرّ هزيمة . وكان عدد القتلى من الاتراك ثلاثمائة . اما العرب فلم يفقدوا الا رجلين ، واسروا ١٥٠ تركياً ، وغنموا الغنائم الوافرة ودخلوا العقبة ظافرين . فانقطع الاتراك عنها ، وامنت ثرعة السويس مخاطر حملاتهم عليها ، وتقربت المواصلات بين العرب وبين القاهرة . فدعا لورنس فيصل واقره في العقبة ، واقامه قائداً عاماً للعرب اجمعين بالرغم عن معارضة الشريف حسين . ولمّ الاتراك شعثهم ، واشتد ظهرهم بقدوم القائد الالماني فلكنهايم الى معان واخذوا يطمحون باسترداد العقبة . فصار لورنس يرسل اليهم الطيارات البريطانية تمطرهم وابل القنابل ، ودبر الحيل عليهم ليضطرهم الى تبديد قواهم . فكان العرب يهاجمونهم من

شتى الانحاء ويشغلونهم عن الحذر واتقاء المكائد التي كان لورنس يكيدها للقطارات السائرة من دمشق الى المدينة.

نسف القطار

كان يوسع لورنس منذ اوائل الحرب ان يقطع الخط الحديدي الواصل بين المدينة ودمشق قطعاً باتاً. لكنه فضل ابقاءه فتحاً وشبكةً لاصطياد القطارات المسافرة لتموين الحامية التركية في المدينة. وكان يقطعه في نقطه الخطيرة وعلى الخصوص في ممرّ الجسور، فيضطرّ الاتراك الى ترميمها وتصليحها بمشقّات دونها خرط القتاد.

ووصف لورنس في كتابه نسفه قطاراً من قطارات الاتراك، وعربنا صفحة وصفه، لما رأينا فيها من شديد الوقع على القراء: بينما كان الاتراك مشتغلين بدفع غارات العرب عنهم، سار لورنس ورجلين من الجند الانكليزي، وجمع مئة رجل من عرب الحريطات، ومضى الى الخط الحديدي حيث الجسر ممدود بعد اعوجاج الخط، فوضع الغام الديناميت تحت الجسر وسلحها بالقنابل، ووصل جهاز الانفجار بسلك كهربائي مربوط بمحطة خفية واقام حارساً على مرتفع، عن بُعد، ليتذر بقدوم القطار عند ظهوره في الافق. قال لورنس:

« اشار الحارس الينا بان الساعة قد دنت وان القطار آتٍ الينا. نعم! لقد اتى، وعلى رأسه قاطرتان. سمعنا صوت صفيرهما يشقّ عنان السماء، ورأيناهما يجرّان الحافلات مجهزةً بانواع الاسلحة والذخيرة. علا الاتراك اسطحتها ووقفوا عليها ورماة متاريس من اكياس الرمل. وتقرب القطار الينا واعوج سيره مع اعوجاج الخط. وما كان قد خطر على بالي امر وجود قاطرتين على رأسه. فتبدّدت افكاري وقررت اطلاق القوة المفرقعة تحت القاطرة الثانية حتى اذا نجت الاولى فلا تقوى على جرّ باقي الحافلات.

« وما هي دقيقة حتى وصل القطار ومرت القاطرة الاولى على الجسر ثم الثانية فرفعت يدي بالاشارة المعهودة بيني وبين الرجل الموكل على المفتاح الكهربائي. فحدث ضجيج هائل، وغاب الخط عن نظرنا في عمود تراب

ودخان ملأ الفضاء طولاً وعرضاً.

« واصطكّ الحديد بالحديد ، وتطايرت القطع المعدنية ، ومنها دولاب من دواليب القاطرة ، فانه تصاعد وتعلى بحركة رحوية ثم هبط وراءنا . وعقب صوت الانفجارات سكوتٌ كأنه الموت ، وهبت الريح نحونا فساقت الينا عمود الدخان ، وحولت لونه من الاسود القاتم الى الابرش الشفاف . ثم هجم العرب على الاتراك . وهرب هؤلاء لاجئين الى ما وراء الصخور والرشاشات تحصدهم حصيداً ، وتقطعت حافلات القطار وسقطت على جانبي الخط . . . »

دخول العرب دمشق

في ١ تشرين الثاني ١٩١٧ ، سقطت بئر سبع في ايدي الحلفاء . وفي ٧ منه سقطت غزة وعسقلان ، وفي ٩ و ١٧ يافا . ولم يمضِ الشهر على هذه الحوادث حتى دخل الحلفاء القدس . اما لورنس فكان ينتظر في برد الشتاء ساعة النصر النهائي . وها ان الساعة ازفت لدخول العرب في هجمات الحرب الاخيرة ، شنوا الغارات متواترة على الخط الحديدي ، فقطعوه تقطيعاً على مسافة مئة كيلو متر ، ونسفوا ٧٩ جسراً . ونالوا من المغانم ما لم يحلموا به حتى اشبعوا جشعهم . وفي ٢١ شباط ، فتح اللنبي اريحا وتلا ذلك الفتح فتحُ السلط . ثم هاجم اللنبي الاتراك على جبهة امتدت من الاردن الى البحر . وعول على عرب لورنس ليتقي شرّ العدو على جناحه الشرقي . ودعاهم الى اللقاء واياهم في درعا . ولم يخالف لورنس الميعاد . ففي ١٦ ايلول ١٩١٨ وقف على ابواب درعا . وتوالت انتصارات اللنبي في الناصرة وجنوبي بحيرة طبرية وعلى الاردن ، فكسر الجيش التركي السابع والثامن واباده عن بكرة ابيه . واصبح لورنس على قاب قوسين من دمشق فلم ينتظر اوامر اللنبي . رأى الثمر ناضجاً فابى الا ان يقطفه بيده . سار الى دمشق ودخلها مع رجاله ولم يصبر على قدوم فيصل اليها ، ودبر شؤونها الى ان دخلتها جنود الحلفاء محرّريها الحقيقيين.